

بلاط الشهباء

بعد الف ومائتي عام

للمستأثر محمد عبد الله عنانه

— ٢ —

وكان أثناء غاراته وأرحلته في (اكوتين) قد اتصل بأمرها الدوق أودو، وتفاهم معه، وكان الدوق مذرأ خطر الفتح الإسلامي يهدد ملكه يسعى إلي مهادة المسلمين، وقد فاضهم فعلا، فاتهز كارل مارتل محافظ القصر وزعيم الفرنج هذه الفرصة لإعلان الحرب على الدوق، وكان يخشى نفوذه واستقلاله، وغزا اكوتين مرتين وهزم الدوق فكان أودو في الواقع بين نارين يخشى الفرنج من الشمال والعرب من الجنوب، وكانت جيوش كارل مارتل تهدده وتعيث في أرضه (سنة ٧٣١ م) في نفس الوقت الذي سعى فيه عثمان بن أبي نسعة لمخالفته والاستعانة به على تنفيذ مشروعه في الخروج على حكومة الاندلس والاستقلال بحكم الولايات الشمالية، فرحب الدوق بهذا التحالف وقدم ابنته الحسنة (لاميجيا) عروسا لعثمان، وفي بعض الروايات أن ابن أبي نسعة أسر ابنة الدوق في بعض غاراته على اكوتين ثم هام بها حبا وتزوج منها. وعلى أي حال فقد وثقت المصاهرة عرى التحالف بين الدوق والزعيم المسلم، ورأى ابن أبي نسعة كتماناً لمشروعه أن يسبغ على هذا الاتفاق صفة هدنة عقدت بينه وبين الفرنج، ولكن عبد الرحمن ارتاب في أمر الثائر ونياته، وأبي قرار الهدنة التي عقدها، وأرسل إلى الشمال جيشاً بقيادة ابن زيان للتحقق والتحوط لسلامة الولايات الشمالية، ففر ابن أبي نسعة من مقامه بمدينة الباب^(١) الواقعة على (البرنيه) إلى شعب الجبال الداخلية فطارده ابن زيان من صخرة إلى صخرة حتى أخذ وقتل مدافعا عن نفسه، وأسرت زوجته لاميجيا وأرسلت إلى بلاط دمشق حيث زوجت هناك من أمير مسلم^(٢). ولما رأى أودو ما حل

- (١) واسمها بالقشتالية Cuidad de la Peurta وقد كانت تقع على إحدى ممرات البرنيه وتسمى أحيانا بويكاردا
تحيط الرواية سيرة لاميجيا وزوجها بكثير من القصص الخيالية الشائعة التي اتخذت فيما بعد مستقي خيال بعض الكتاب والشعراء غير أن معظم هذه القصص لا يخرج عن حد الأساطير
(٢) كانت إمارة اكوتين في ذلك الحين تمتد بين نهر الرون شرقا وخليج وسقونية غربا وبين اللوار شمالا ونهر الجارون جنوبا وتشغل من مقاطعات فرنسا الحديثة اجويان وبيرجور وساتونجربواتو وقنده وجزءا من انجو

بجليفه واستشعر الخطر الداهم تأهب للدفاع عن مملكته، وأخذ الفرنج والقوط في الولايات الشمالية يتحركون لمهاجمة المواقع الإسلامية، وكان عبد الرحمن يتوق إلى الانتقام لمقتل السمع وهزيمة المسلمين عند اسوار تولوشة، ويتخذ العدة منذ بدء ولايته لاجتياح مملكة الفرنج كلها، فلما رأى الخطر محدقا بالولايات الشمالية لم يبدأ من السير إلى الشمال قبل أن يستكمل كل اهبة، على أنه استطاع أن يجمع أعظم جيش سيره المسلمون إلى (غاليا) منذ الفتح، وفي أوائل سنة ٧٣٢ م (أوائل سنة ١١٤ هـ) سار عبد الرحمن إلى الشمال مخترقا أراغون (النهر الأعلى) ونافار (بلاد البشكنس) ودخل فرنسا في ربيع سنة ٧٣٢ م، وزحف توأ على مدينة (آرل) الواقعة على نهر الرون لتخلفها عن أداء الجزية واستولى عليها بعد معركة عنيفة نشبت على ضفاف النهر بينه وبين قوات الدوق أودو، ثم زحف غربا وعبر نهر الجارون وانقض المسلمون كالسيل على ولاية اكوتين^(٣) ينخزون في مدنها وضياعها، فحاول أودو أن يقف زحفهم، والنقي الفريقان على ضفاف الدوردون فهزم الدوق هزيمة فادحة، ومزق جيشه شر ممزق، قال ايزيدور الباجي: «والله وحده يعلم كم قتل في تلك الموقعة من النصارى، وطارد عبد الرحمن الدوق حتي عاصمته بوردو (بردال) واستولى عليها بعد حصار قصير، وفر الدوق في نفر من صحبه إلى الشمال، وسقطت اكوتين كلها في يد المسلمين، ثم ارتد عبد الرحمن نحو الرون كرة أخرى، واخترق الجيش الإسلامي برجونيا واستولى على ليون وبيزانصون^(٤) ووصلت سرياته حتي صانص التي تبعد عن باريس نحو مائة ميل فقط، وارتد عبد الرحمن بعد ذلك غربا إلى ضفاف اللوار ليم فتح هذه المنطقة ثم يقصد إلى عاصمة الفرنج^(٥). وتم هذا السير الباهر، وافتتح نصف فرنسا الجنوبي كله من الشرق إلى الغرب في بضعة أشهر فقط. قال أدوار جيبون — «وامتد خط الظفر مدى ألف

(٣) وهي مسقط رأس الشاعر الفرنسي الأشهر فكتور هوجو

(٤) يقدم هاردون شرحا آخر لسير عبد الرحمن فيقول: انه زحف أولا على آرل وحاصرها فبادر الكونت الي انجداها فلقية عبد الرحمن وهزمه والجاه الى الفرار ثم عبر عبد الرحمن نهر الجارون واستولى على بوردو. وكان الكونت قد جمع جيشا جديدا وحاول رده وهزمه فهزم مرة أخرى. ثم اخترق عبد الرحمن بيرجور وساتونج ونواتو وهو ينخن في تلك الانحاء حتى انتهى الى تور Cardonne ; Hist.de L'Afrique et de L'Espagne I. 129 ولكن عبد الرحمن اقتحم وادى الرون ايضا كما بينا وقد شرحنا سيره طبقا لجميع الروايات مجتمعة وطبقا للمواقع الجغرافية التي تتعلق بهذه الغزوة. وقد يكون ان عبد الرحمن لم يسر بنفسه شمالا نحو بورجونيا ولكن الجيش الاسلامي اقتحم هذه الانحاء بلا ريب.

(٥) الفصل الثاني والخمسون Roman Empire

الى روح شوقي بك

خيم الليل وفي آفاقه
ملكك عيني كئيب عاشق
شاعر قد ضاقت الدنيا به
روحه الثكلي بكثفت المني
بات يدعو الله في احزانه
وأطلق اللهم قيدي في الهوى
وأعد نفسي الى حيث الوري
كل يوم للردى سخرية
تترامي لي تهاويل الاسى
كحسان عاريات تكسني
واثبات تنزى حسرة
كلما في الليل مالت نجمة
أو رأيت الطير في دوحته
خلته العاشق في وحدته
عذبات الانس ما عانقتها
زهرة الجثمان في ريعانها
والاماني لم تزل في فجرها
عطف روحى على ريحانها
ثم ولت وهى عبري بعدما
غالها الدهر بسهم صائب

ثم فاضت روحه طاهرة
صدح البلبل لما اشرقت
وجرت في مقلة الشمس دماها
وصداح الطير نوع من بكها
حلب
عمر ابو قوس

دعابة

ما أنت في ثوبك بدر الدجى
أنت وربى فتنة صورت
تستأسر الآه فتفو لذي
لا تحتجب بالبعد عنا فما
وأنت في ذاتك سر وذا
يا نعمتي في محنتي ، داوئي
تعال زود شفتي قبلة
حص

كلا ولا أنت غزال شدن
للناس من كل أنيق حسن
مرآك من كل فؤاد قتن
يعرف فضل الحسن إن لم بين
حسنك في أبصارنا قد علن
يا سكنى إما تجافى السكن
من قبل أن يسرع فيك الزمن
رفيق فاخورى

ميل من صخرة طارق إلى ضفاف اللوار. وقد كان اقتحام مثل هذه المسافة يحمل العرب إلى حدود بولونيا وربى ايكوسيا. فليس الرين بامنع من النيل أو الفرات ، ولعل أسطولا عربيا كان يصل إلى مصب التيمز دون معركة بحرية ، بل ربما كانت أحكام القرآن تدرس الآن في معاهد اكسفورد وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد صدق الوحي والرسالة ،

أجل كان اللقاء الحاسم بين الاسلام والنصرانية، والشرق والغرب، على وشك الوقوع. وكان اجتياح الاسلام للعالم القديم سريعا مدهشا ، فانه لم يمض على وفاة النبي العربي نصف قرن ، حتى سحق العرب دولة الفرس الشاخنة ، واستولوا على معظم أقطار الدولة الرومانية الشرقية من الشام إلى أقصى المغرب ، وقامت دولة الخلافة قوية راسخة الدعائم فيما بين السند شرقا والمحيط غربا ، وامتدت شمالا حتى قلب الأناضول ، وكانت سياسة الفتح الاسلامي مذ توطدت دولة الاسلام ترمى الى غاية أبعد من ضم الأقطار وبسطة السلطان والملك . فقد كان الاسلام يواجه في الأقطار التي افتتحتها من العالم القديم ، أنظمة راسخة مدنية واجتماعية ، تقوم على أصول وثنية أو نصرانية ، وكانت النصرانية قد سادت أقطار الدولة الرومانية منذ القرن الرابع ، فكان على الخلافة أن تهدم هذا الصرح القديم وأن تقيم فوق انقاضه في الأمم المفتوحة نظما حديثة ، تستمد روحها من الاسلام وان تذلل النصرانية لصولة الاسلام سواء بنشر الاسلام بين الشعوب المفتوحة أو باخضاعها من الوجهة المدنية والاجتماعية لنفوذ الاسلام وسلطانه ، وكان هذا الصراع بين الاسلام والنصرانية قصير الأمد في الشام ومصر وافريقية ، فلم يمض نصف قرن حتى غير الاسلام هذه الامم بسيادته ونفوذه ، وقامت فيها مجتمعات اسلامية قوية شاملة ، وغاضت الأنظمة والأديان القديمة ، ثم دفعت الخلافة فتوحها الى أقصى الأناضول من المشرق وجازت الى اسبانيا من المغرب . فاما في المشرق فقد حاول الاسلام أن ينفذ الى الغرب من طريق قسطنطينية ، وبعثت الخلافة جيوشها واساطيلها الزاخرة الى عاصمة الدولة الشرقية مرتين : الأولى في عهد معاوية بن أبي سفيان سنة ٤٨ هـ (٦٦٨ م) والثانية في عهد سليمان بن عبد الملك سنة ٩٨ هـ (٧١٧ م) وكانت قوى الخلافة في كل مرة تبدى في محاصرة قسطنطينية غاية الاصرار والعزم والجلد ، ولكنها فشلت في المرتين وارتدت عن اسوار قسطنطينية منهوكة خائرة .

• يتبع •